

خطبة الدكتور طه حسين بك في احتفال المعلمين الإلزاميين بتكريم وزير المعارف

طه حسين

جريدة المصري

٩ مايو ١٩٤٣

سيدي صاحب المقام الرفيع...

أصحاب المعالي الوزراء...

سادتي...

ربما كان هذا الاجتماع أصدق وصف لوزارتكم هذه القائمة لنظامكم هذا الذي تسعد به مصر منذ أكثر من عام، فهو اجتماع الإلزاميين الذين يعلمون طبقات الشعب، في دار الجامعة التي تهئ لمصر صفوة المفكرين من أبنائها. ومعنى هذا أن هذا الاجتماع إن صوّر شيئاً فإنما يصور مثلكم الأعلى، يصور هذه المساواة التي لا يختلف فيها المصريون مهما تكن مكاناتهم، ومهما تكن منازلهم.

وإني لأستأذنك، يا صاحب المقام الرفيع، وأستأذن زملاءك الوزراء، وأستأذن هؤلاء السادة من رجال التعليم الإلزامي، في أن أصور وزارتكم تصويراً ما، وربما كان هذا المقام ملائماً لأن أستمّد هذه الصورة الصادقة التي ترسم في نفسي لك ولأصحابك من حديث نبوي كريم؛

فقد قال رسول الله ﷺ للمسلمين ذات يوم: «ألا أنبئكم بأحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة؟ أحاسنكم أخلاقاً، الموطئون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون. ألا أنبئكم بأبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة؟ الثرثارون المتفيهقون.» (تصفيق). وأنت وأصحابك، يا صاحب المقام الرفيع، من أحاسن الناس أخلاقاً، ومن الموطئين أكنافاً، ومن الذين يألفون ويؤلفون.

أنت وأصحابك تخدمون الشعب ولا تَمْنُونُ عليه، تهبون للشعب نفوسكم وجهودكم وعقولكم وما تملكون، دون أن تستعلوا على الشعب، أو دون أن تظنوا أنكم تسدون للشعب نعمة، وإنما تؤمنون بأن الشعب له عليكم حق، فأنتم تؤدُّونه؛ لأنكم خدَّامه لا أكثر ولا أقل. (تصفيق). وأنتم موطئون أكنافاً، فقد سمعت، يا صاحب المقام الرفيع، منذ حين خطيب الإلزاميين يتحدث بأن هذا الاجتماع تاريخي؛ لأنه أول اجتماع شهد فيه رئيس الحكومة حفلة الإلزاميين، فأنتم تسعى إلى الشعب، وأنتم تسعى إلى الشعب لأنك تؤمن بأن من حق الشعب عليك أن تسعى إليه.

وأنت وأصحابك، يا صاحب المقام الرفيع، من الذين يألفون ويؤلفون، لا ينكركم من المصريين أحد، ولا تنكرون من المصريين أحداً، وأنتم في قلوب المصريين جميعاً أمناء على مُثُلِ المصريين العليا، والمصريون جميعاً في قلوبكم أصحاب الحق فيما تملكون من جهد وقوة وإخلاص.

وإذن لي، يا صاحب المقام الرفيع، في أن أُصوّر وزارتك هذه وعهدك هذا وبرلمانك أيضاً تصويراً ما، وإذن لي في أن أستعير هذا التصوير الثاني من حديث كريم للنبي الكريم، فقد قال رسول الله ﷺ للأنصار في حديث جرّى: «إنكم لتكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع.» وأنت وأصحابك سراع إلى نجدة مصر حين تحتاج مصر إلى النجدة، وأنت وأصحابك تكثرون حين تحتاج مصر إلى مَنْ يذودُ عنها، وإلى من يحميها، وإلى من يُوطئ لها مكانها اللائق بها.

وأنت وأصحابك أعفُّ الناس عن الغنائم، وأنت وأصحابك أظهر الناس يداً، وأنزه الناس قلباً، وأنقى الناس ضميراً، وأزكى الناس نفساً، وأسمى الناس طبعاً، وأرفع الناس عمّاً لا يليق بكرام الناس. (تصفيق وهتاف).

ثم ائذن لي بعد ذلك في أن أتحدث إلى هؤلاء السادة الإلزاميين حديثاً أحب أن يسمعوا له، وأحب أن يتفضلوا فيستشعروا في نفوسهم، وأحب أن يتفضلوا فيذيعوه فيما بينهم، ويذيعوه في قراهم وفي مدنهم، في أقاليمهم وفي بيئاتهم التي يعيشون فيها، فهو حديث العلم، وحديث العلم في العهد الديمقراطي الراقى الذي نعيش فيه الآن. (هتاف متواصل).

أخص ما يمتاز به زميلك، وزير المعارف، أن يؤمن إيماناً قد مازج نفسه، وجرى في عروقه مع دمه بأن المصريين جميعاً أصحاب الحق المطلق في أن يتعلموه، وفي أن يكرموا، وفي أن يردّ عن عقولهم فقر الجهل، وفي أن يردّ عن أجسامهم الفقر المادي الذي يأتي من البؤس ومن المرض.

هو مؤمن بهذا إيماناً خالصاً، ولولا أنك رئيس الوزارة التي يعمل فيها لما استطاع أن يجد لإيمانه هذا منفذاً في الحياة العملية، ولما استطاع يومئذ أن يكون وزيراً يعالج ما يعالج من الأمور.

إنه يؤمن بحق المصريين جميعاً ألا يردُّوا عن التعليم، وقد عمل وأعنته على ما عمل، عمل على ألا يرد مصري عن التعليم مهما تكن فروع هذا التعليم. ضاقت الجامعة فأنشأ جامعة أخرى، ضاقت المدارس الثانوية فأضاف إليها فصولاً، وأضاف إليها مدارس، ضاقت المدارس الابتدائية فأضاف إليها فصولاً وأنشأ مدارس أيضاً.

ثم رأى أن الفقر يقوم عقبة عنيفة جداً بين كثير من المصريين وبين التعليم، وخصوصاً في هذه الأيام الشاقة، فلجأ إليك ووجد منك خير ملجأ، وإذا أبواب التعليم تُفتح، وإذا الفقراء يدخلون المدارس والجامعات لا يُردُّون بالفقر مهما تكن ظروف الميزانية، ومهما تكن الظروف الأخرى. وإذا نسب المجانية تزداد وتزداد وتزداد، حتى إذا ضاق بطلب زيادة المجانية استصدر من مجلس الوزراء قراراً بالألا يرد طالب عن الامتحان إذا عجز عن دفع المصروفات.

وزميلك وزير المعارف يريد أن يستفيد التلاميذ مما يُلقى إليهم من العلم، فهو يعنى بصحتهم ما وجد إلى هذه العناية سبيلاً، ويجد من زميله وزير الصحة ما يمكنه من هذه العناية، ثم يلجأ إليك وإلى البرلمان يستعينكما على أن يطعم الفقير، وعلى أن يردَّ عن أبناء المدارس الإلزامية عارض

الجهل، وعارض الجوع، فإذا البرلمان يقيّد الدولة بتغذية التلاميذ بالمدارس الأولية، ويرصد لذلك في العام الماضي مائة ألف من الجنيهات، ثم يرصد لذلك في هذا العام ثلاثمائة ألف، وإذا نجيب الهلالي يغذّي أبناء المدارس الإلزامية مائة وخمسين ألفاً في العام الماضي، وسيغذّي منهم في العام المقبل نصف مليون. (تصفيق متواصل).

وزميلك وزير المعارف يشاركك في عاطفة تمتاز بها امتيازاً ظاهراً جداً، وهو أنك تحب مصر لا كما يحب إنسان وطنه، ولكنك في الوقت نفسه تبغض الأثرة، وتحب للعالم الشرقي وللعالم العربي ما تحبه لمصر. فأنت لا تريد أن تكون مصر معتزلة، ولا تريد أن تكون مصر أثرة، وإنما تريد أن يكون الشرقيون جميعاً شركاء لمصر في هذه المائدة العلمية الهائلة التي يؤلمها وزير المعارف. (تصفيق وهتاف).

ومن أجل هذا لم يكد نجيب الهلالي يتولى وزارة المعارف في وزارتك هذه حتى أخذ الأساتذة من المصريين يخرجون من بلادهم عشرات إلى البلاد الشرقية، يعلمون فيها. وإذا من الأشياء المقررة عندنا في وزارة المعارف ألا يرد لشرقي طلب مهما يكن في سبيل العلم، وألا يرد لحكومة شرقية طلب مهما يكن في سبيل نشر الثقافة، فنحن قوم نحب العلم، لا نحبه لأنفسنا وحدها، ولكن نحب للناس جميعاً، ثم ها نحن أولاء لم نكتف بنشر ثقافتنا والثقافة العربية الإسلامية في الشرق العربي وحده، ولكننا نرسل رسل الثقافة المصرية إلى بلاد الحبشة، ولأول مرة في تاريخ مصر الحديثة تؤسس في بلاد الحبشة مدرسة مصرية تنشر الثقافة

المصرية بلغة أجنبية في بلاد لا تتكلم العربية، لا لشيء إلا لأنك أبعد الناس عن البخل بالأشياء المادية، وبالأشياء المعنوية أيضاً، ولا لشيء إلا لأن وزارتك لا تفهم مطلقاً أن يعيش الإنسان لنفسه، وإنما يعيش الإنسان لوطنه، ويعيش الوطن للإنسانية كلها.

وزميلك وزير المعارف، يا صاحب المقام الرفيع، يتصور مكانة مصر وكرامتها تصوراً أقل مما يوصف به أنه يلائم شعورنا بالكرامة المصرية، ويلائم اعتزازنا بهذه الكرامة، ويلائم هذه المثل العليا التي نطمح فيها، وهي أن تكون مصرنا العزيزة كأي وطن من أوطان الدنيا المستقلة. وهو من أجل هذا لم يكفه أن ينشر الثقافة المصرية في الشرق العربي، ولا أن ينشئ مدرسة ثانوية في السودان، ولا أن يبعث الذين ينشئون مدرسة في الحبشة، ولكنه يريد أن ينشر الثقافة المصرية في بلاد الإنجليز نفسها، وإذا هو لا يقبل أن يكون للبريطانيين معهدهم في مصر حتى يكون للمصريين معهدهم العربي المصري في لندن. كذلك يفهم نجيب، وكذلك يفهم زملاؤك الوزراء الكرامة المصرية والاستقلال المصري على هذا النحو الذي تفهم أنت عليه كرامة مصر وعزتها واستقلالها، وعلى هذا النحو الذي لا يمكن أن تعيش مصر المستقلة إلا إذا فهمت نفسها عليه. (تصفيق وهتاف متواصل).

ثم دعني أصورك وأصور وزرائك وأصور عهدك الديمقراطي هذا تصويراً أخيراً، فأنت قد دعوت إلى الاستقلال كما دعا إليه سعد من قبلك، وأنت قد جاهدت في الاستقلال، وأنت قد كسبت الاستقلال وعدت

به كريماً موفوراً، ولكنك حين عدت به إنما عدت به مكتوباً على الورق، ثم تركت الحكم، فظل الاستقلال مكتوباً على الورق، وأخذت تتخطفه الأيدي، وتنتقص أطرافه من يمين مرة ومن شمال مرة أخرى؛ لأنه كان استقلالاً مكتوباً على الورق. فلما جئت وجاء معك زملاؤك وجاء معك برلمانك، جعلت الاستقلال حقيقة واقعة، ومادة تلمس وتُرى وتُحس، يلمسها كل إنسان، ويرaha كل إنسان.

وليس أدل على ذلك من موقفك في شهور يونيو ويوليو وأغسطس الماضية، وليس أدل على ذلك من موقفك حين كان العدو قريباً من أبواب الدلتا، وحين لم يستطع أحد أن يمسه مصالح مصر بأذى، وحين عاد العدو عن مصر وردت الأخطار عنها، وخرجت مصر من هذه الأزمة كريمة موفورة. يشهد العالم كله بأنها لم تكن أقل كرامة، ولا أقل عزة، ولا أقل احتمالاً للخطب من أي بلد مهما يكن في الشرق أو في الغرب. كل هذا يا سيدي الرئيس تدين به مصر لك ولزملائك ولأعوانك من أعضاء البرلمان، تدين به لهذا العهد الديمقراطي الذي تسعد به، والذي نرجو أن تسعد به.

فإذا احتفى بك وبزميلك وبزملائك هؤلاء الإلزاميون، فثق بأنهم لا يحتفون بك؛ لأنهم يريدون أن يتملقوك، فالأمر بينك وبين الشعب ليس أمر تملق، إنما هو أمر حب ومودة وإخلاص. (تصفيق وهتاف). ولماذا يمكن أن يتملقوك أو يتملقوا زميلك وزير المعارف، لقد أدبتهما إليهم بعض حقوقهم، ولا أقول كل حقوقهم، وهم لم يكرموكما قبل تأدية هذه

الحقوق، وإنما كرموكمما بعد أن أدیتما إليهم هذه الحقوق، وبعد أن أصلح الكادر إصلاحًا ما، وبعد أن أنشئ صندوق الادخار، فهم إذن لا يحتفون بكما تملقًا، وإنما يحتفون بكما حبًا، ويحتفون بكما شكرًا أيضًا.

وكان زملاؤك الوزراء، وكان برلمان الوفد. قد أدیتم للإلزاميين ما أدیتم من الحق، فائذن لي أن أقول لمقامك الرفيع، ولزميلك وزير المعارف، ولزملائك الوزراء، ولمن حضر من أعضاء البرلمان: إن الذي أدیتموه إليهم حسن، ولكن الذي بقي لهم في أعناقكم كثير جدًا، لا شيء يا صاحب المقام الرفيع إلا لأنك تريد — ولأننا نريد معك — أن يكون أبناء مصر كرامًا دائمًا، ولن يكون المصريون كرامًا إلا إذا كُرم الذين يُعلمونهم ويُنشئونهم. وهذا الشعور نفسه هو الذي حملكم على أن تؤدوا ما أدیتم من الحق، وأنا واثق بأنه سيحملكم على أن تؤدوا ما بقي من هذا الحق). تصفيق).

وآية ذلك أنكم لم تختصوا الإلزاميين بعطفكم، وإنما شملتكم رجال التعليم جميعًا، فلن يمضي هذا العصر، يا صاحب المقام الرفيع، حتى يشعر كل معلم في مصر — مهما يكن الفرع الذي يعلم فيه — بأن وزارتك الديمقراطية قد أحسَّت أن له حقًا، وأن حقه يجب أن يُؤدَّى إليه. وهذا الحق هو أن يكون كريمًا، وأن يمكن من احتمال أعباء الحياة كما ينبغي أن يتحمل الرجل الكريم أعباء الحياة.

أتريد آخر الأمر، يا صاحب المقام الرفيع، أن أحدثك لماذا لا تجد وزارتك ولا يجد عهدك ارتياحاً من بعض القلوب؟ أمّا أنا فأستطيع أن أحدثك بهذا حديثاً صريحاً، لا لبس فيه، وأزعم أن أحداً لن يستطيع أن ينكر ما سأحدثك به: إن وزارتك لا تريح؛ هي أولاً لا تريح نفسك، فهي متعبة متعبة، ولكنها لا تريح قوماً آخرين ليس من مصلحتهم أن يشعر الشعب بوجوده ولا بحقوقه ولا بكرامته، وإنما مصلحتهم أن يُستغل الشعب كما تُستغل الأرض، وكما تُستغل الماشية. وأنت ووزارتك تشعرون الشعب بأن له حقاً، وبأن له كرامةً، وبأن لا فرق بينه وبين أحد كائناً ما يكون.

فمن أجل هذا كانت وزارتك متعبة لبعض القلوب، مؤرقة لبعض الناس، مانعة كثيرين من أن يستريحوا؛ لأنك تهين لهم عناءً عظيماً يوم يشعر كل مصري بأن من حقه أن يعيش حرّاً كريماً، لا فرق بين هذا الغني أو ذاك، وبين هذا القوي أو ذاك، وإنما المصريون جميعاً كما يقول الدستور سواء أمام القانون. أتريد أن تعرف الفرق بينك وبين الذين لا يحبونك؟ الفرق بسيط جداً: أنت أخذت الدستور على أنه جد، وغيرك أخذ الدستور على أنه مزاح.

سيدي صاحب المقام الرفيع

إن هؤلاء السادة الإلزاميين لم يسعوا إلى هذا المكان ليستمعوا لي، وإنما سعوا إلى هذا المكان ليشكروك وليشكروا زميلك وليكرموكما، وقد أقحمت نفسي بين الخطباء إقحاماً؛ لأن كلمة الحق يجب أن تُقال، ويجب

أن تُقال مهما تكن الظروف، وقد قلت هذه الكلمة الآن، فائذن في أن أحييك
وأحيي زملاءك، وفيهم صديقي نجيب الهاللي، ثم ائذن لي في أن أدع هذا
المكان، وقد يخيل إليّ أن هؤلاء السادة يريدون أن يستمعوا منك ومن
زميلك بعض الشيء. (هتافات مختلفة وتصفيق حاد متواصل).